مسك الختام

بصمات المرأة العراقية

بشرى يوسف

bushragsj@yahoo.com

التقيتها في احدى ورش تدريب الاعلاميات صحفية فلسطينية تجاذبنا اطراف الحديث شكوت لها معاناتنا في الغربة وكيف ان الانسان يجبر على ترك بلاده بعد ان يفقد خياراته. كنت حينها احدثها بالم وحسرة من يلجأ الى بلد اخر ويعيش ضمن مجتمع غير مجتمعه، قالت وبكل هدوء ان للغربة محاسن احيانا، صدمني قولها في البداية وربما اغضبني.. كيف يكون للغربة محاسن وهي اسوء مايصيب الانسان في حياته؟ وما هي الا لحظات حتى استطردت تقول: في الغربة ستعيشين مجتمعا غير مجتمعك، من خلاله ستتعرفين على اشخاص وعادات وتقاليد تضطرين الى مجاراتها، ومن ثم التعايش معها.. بالتاكيد لن تفقدي عاداتك وبيئتك، لكن هذا الاختلاط بينهما سيولد معارف جديدة تكسب الانسان ثقافة مميزة. ومع ذلك لم اومن بقولها تماما، حتى خبرت حياة التغرب اكثر واكثر، لاكتشف بعدها ان كل ماقالته لي حقيقة مبنية على تجربة ربما عاشتها هي، فللغربة رغم مرارتها فوائد، لانك حين تتعايشين ضمن مجتمع جديد ستتعرفين على عادات وتقاليد وتفاعل مجتمعي ماكان سيتحقق لولا تعايشك فيه.. وبالتالي ستضعين تقييما لنفسك وللاخرين من منظار مختلف، وهذا ماحصل معي.. فبعد اختلاطي بواحدة من المجتمعات العربية، وتعايشي مع نسائه خرجت بنتيجة اعطتني اعتزازا بنفسي وثقة بها، ذلك ان المراة العراقية لاتضاهيها امرأة في ثقافتها ووعيها وصبرها وادراكها لمشكلات بلادها، فلم اجد بين النساء من وقفت بوجه الحروب صامدة تعمل وتملا اماكن الرجال الذين غابوا في المعارك لتثبت جدارتها في العمل، ولم اجد بين النساء من صبرت على حصار وجوع فتدبرت امورها وساعدت في نفقات عائلتها كما عملت المراة العراقية، وهاهي اليوم تقف في طوابير البانزين والنفط وتعمل اكثر مما يعمل الرجل، وتدافع عن حقوقها، وتدرس وتتثقف، فثقافة العراقية على الرغم من كل

مامر بها من ظروف صعبة تفوق بكثير ثقافة المراة في المجتمع الجديد الذي عشت فيه، هذه المقايسة تقودني الى القول.. ان الدور الذي تلعبه المرأة العراقية متأت من الأرض الصلدة التي ارست نضالاتها عليها، والتي تركت بصماتها واضحة منذ بداية تكوين الدولة العراقية الحديثة في عشرينيات القرن الماضي حين سطعت أسماء نساء عراقيات عديدات كن من اوائل المبعوثات للدراسة في الجامعات العربية والأوربية، وعدن حاملات شهادات عليا أهلتهن لقيادة مواقع تربوية وعلمية واجتماعية، وكانت قوائم البعثات في نصفها أوثلثها من النساء، وعشرات الأمثلة التي كانت المرأة فيها قاسما مشتركا لأخيها الرجل في رسم الحياة العراقية. مما يجعلني اليوم اقف اعتزازا بنفسي وبعراقيتي، لانني الفلاحة التي حرثت أرضها وسقتها وقطفت ثمارها وعملت في ارضها اكثر مما عمل الرجل.. لانني في المدينة الطبيبة والمهندسة في مواقع العمل والبناء والاعمار، والتاجرة وصاحبة الأعمال، وطالبة علم وأستاذة جامعة وعميدة كلية، والمدرسة المربية للأجيال، وعالمة الذرة والكيمياء والفيزياء والرياضيات، والشاعرة الرائدة المجددة والقاصة والروائية والأديبة الفذة.. وما من مجال يذكر ليس فيه مبدعة تقود، أليست العراقية هي الوزيرة منذ أكثر من أربعين عاما ورئيسة المؤسسة والمديرة العامة والقائدة الاجتماعية والسياسية...

فالمرأة العراقية في الخمسينيات والستينيات لم تهمش او تغيب حتى أواخر السبعينيات، حين بدا الخط البياني لأوضاع النساء بالهبوط، فاهملت تماما وتحملت الكثير من المصاعب والمحن والهموم من اجل التواصل مع الحياة، تحملت الفاقة والخوف وفقدان الزوج والاب والابن، وبعد التغيير الذي شهده العراق حاولت المرأة ان تجد لها صوتا وتستعيد وجودها باعتبارها جزء من حركة المجتمع، لكنها وللاسف لم تجد صدى لهذا الصوت، فالرجل بخس حقها، وبعضهم حاول ان يعيدها القهقري، ولم يتبقى امام نساء العراق الا الاستفادة من الثراء في الخبرة والعمل من اجل توحيد اهدافهن، وعدم الخضوع للأحزاب السياسية التي ينتمون إليها بقدر ما يقدمن مصالحهن وحقوقهن على أية انتماءات أخرى، وأن يعملن يدا بيد من أجل الخطوة الجوهرية الأساس ألا وهي تثبيت حقوقهن المدنية في الدستور بمبادئ وقوانين وفقرات دستورية صريحة، وإلا فستظل المرأة العراقية رهينة التفسيرات المزاجية لقوى التخلف والظلام التي استشرت في حياتنا العامة اليوم.